

الحلقة (١)

﴿قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ الدِّينُ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥)﴾ البقرة.

سورة البقرة مدنية ولا يجهل أحد فضلها وما فيها من الثواب والأجر العظيم، فقد صح عنه عليه السلام والحديث عند الإمام أحمد ومسلم وغيرهما (اقرأوا البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة).

فهذه السورة حوت آيات عظيمة مثل آية الكرسي، وآخر آيتين منها، وما إلى ذلك من الفوائد والدلائل والإرشادات.

❖ سبب نزول الآية:

هو على ما ذكره عامة المفسرين أن صحابياً جليلاً هو عمرو بن الجموح الأنصاري رضي الله عنه كان ذا مال كثير، وقد أسن، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: إني رجل كبير ولي مال كثير فبم تأمر؟ فنزلت هذه الآية.

❖ مفردات الآية:

﴿قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾﴾: أصل السؤال الحاجة التي تحرص عليها النفس فيتصور في المعاني المعقولات كاستدعاء معرفة أو ما يؤدي إليها، ويتصور السؤال أيضاً في المحسوسات كاستدعاء مال أو ما يؤدي إليه.

فاستدعاء المعرفة جوابها باللسان، وتنوب عنه اليد، فاليد خليفة عنه بالكتابة والإشارة، هذا في ما يتعلق بالمعقولات.

وأما فيما يتعلق بالمحسوسات واستدعاء المال بيانه باليد وينوب عنها اللسان بوعده أو رد، أفاده الراغب الأصفهاني في مفرداته.

﴿قوله تعالى ﴿يُنْفِقُونَ﴾﴾: أصل النفقة اسم للشيء المنفق من المال، ثم النفقة واردة في القرآن الكريم إما واجبة كالزكاة، أو مندوبة كالصدقة، أو مكروهة كإنفاق المال في شيء لا فائدة من ورائه، أو محرمة، وهي المعروفة بالأحكام الخمسة وهي التي تدخل في أبواب العبادات هي نفسها ترد هنا.

﴿قوله تعالى ﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾﴾: الفعل ما كان معبراً به عن القدرة على الشيء والفرق بينه وبين العمل، هنا نجد أن القرآن وكذا السنة استعمالاً هذين اللفظين على نحو شائع فأيات كثار ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ

خَيْرٍ﴾ ﴿وما تعملوا﴾ وإلى آخره، فهل ثمة فرق بين الاسمين أم لا؟ يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى: (إن العمل أخص من الفعل، فهو يكون بقصد) إذاً العمل أخص من الفعل، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ فإذاً العمل دائماً

يسبقه نية واستعداد نفسي، وهو المُعبر عنه إسلامياً بالإخلاص، شاهدنا على ذلك الحديث المشهور وهو حديث عمر رضي الله عنه: **(إنما الأعمال بالنيات)** إذا الأعمال الشرعية لا تقع موقعها إلا إذا كانت النية الصادقة (الإخلاص) حاضرة، أما إذا لم تكن النية حاضرة فيذهب هذا العمل إلى جانب آخر، وهو إما إلى الرياء وإما إلى النفاق وما إلى ذلك نسأل الله السلامة.

وأما الفعل -والكلام لا يزال للراغب الأصفهاني رحمه الله-: **والفعل قد يكون بقصد أو بدونه**، ولهذا قد ينسب إلى الحيوان الفعل "مثالاً: إذا خرج الإنسان وهو يقصد بسيارته مكان ما، ورأى شيخاً كبيراً على قارعة الطريق ينتظر سيارة، فحمل هذا الشيخ الكبير فعندئذ يكون نال ثواباً لماذا؟ لأن هذا الفعل لا يحتاج إلى نية سابقة، فأنت تخرج من بيتك ولا تدري ما الذي سيحصل، فإذا وجدت شيئاً يترتب عليه ثواب وعملته فأنت بهذا الفعل نلت الثواب، وهذا هو الفرق بين الفعل والعمل.

﴿قوله تعالى: **﴿مِنْ خَيْرٍ﴾**﴾:

الخير ما يرغب فيه كل أحد كالعقل والعدل والفضل والنفع، يعني ما من أحد إلا ويريد أن يكون خيراً أي أن ينسب إلى الخير، فالخير من حيث التعريف اللغوي هو ما يرغب فيه كل أحد كالعقل والعدل والفضل والنفع.

والخير ضربان:

الضرب الأول: ضرب مطلق وهو أن يرغب فيه كل أحد بكل حال.

الضرب الثاني: مقيد، وهو أن يكون خيراً لواحد وشر لآخر كالمال مثلاً، فالمال كالوعاء إن وُضع فيه خير فهذا الوعاء يكون باعتبار ما وضع فيه خير ونسب إلى الخير، وإن وُضع فيه شر فينسب إلى الشر ويكون هذا الوعاء يحوي شيئاً لا خير فيه.

إذا هاتان جزئيتان، جزئية تتعلق بسبب النزول وجزئية تتعلق ببعض المفردات اللغوية التي تكلمنا عليها الآن.

﴿**مسألة:** هل هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ هل هذه الآية محكمة أم منسوخة؟

بمعنى هل حكم الآية باقٍ على الأصل، أم أنه طرأ عليها التغيير، والتغيير يكون إما بالنسخ أو التقييد وما إلى ذلك من أمور قد لا نتعرض لها الآن؟

الجواب على هذا التساؤل: ذهب جمهور العلماء إلى أن الآية محكمة، بمعنى أن حكمها باقٍ ولم يُنسخ، وذهب السدي رحمه الله تعالى إلى أنها منسوخة، أي أن آية أخرى نسخت حكم هذه الآية، فما ناسخها على رأي السدي هو قوله تعالى ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا**

وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ... الآية أي آية الزكاة، السدي رحمه الله تعالى -وهو إمام في التفسير- يرى أن حكم هذه الآية منسوخ أو مرفوع بإيجاد آية الزكاة التي هي كما ذكرنا آنفاً **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا..﴾** الآية، هذان أشهر ما قيل في هل الآية محكمة أم منسوخة. **الراجح أنها محكمة، لأنها عامة في الفرض والندب**، أي أن هذه الآية حكمها باقٍ على ما هو، وأما آية إيجاب الزكاة فلا بأس أن تتعاقب الآيتان فتصبح هذه التي معنا في سورة البقرة أن **الإنفاق** منه كما ذكرنا يدخله الأحكام الخمسة، فأحياناً قد يكون واجباً كالإنفاق على الوالدين فإن النفقة تلزم الابن على والديه، أيضاً قد تكون النفقة مندوبة كالإنفاق على القرابات من الفقراء، فإذا لا تصادم بين حكمي الآيتين.

فالسدي إن رأى رحمه الله تعالى أن الآية منسوخة، فيأخذ الجمهور من ناسخها أن إيجاب الزكاة هناك لم يختلف أحد حول ذلك، وأما هذه الآية فحكمها على ما ذكرنا الآن أنه باقٍ، فالنفقة أحياناً واجبة وأحياناً مندوبة وأحياناً مكروهة و... الأحكام الخمسة كما ذكرنا.

هنا لطيفة بلاغية، فيلاحظ أن السائلين وهم المؤمنون، سألوا عن المنفق، فجاء الجواب ببيان المصرف الذي توضع فيه النفقة، وهذا الأسلوب معروف عند علماء البلاغة بالأسلوب الحكيم، فالسائل يسأل عن الشيء وتأتي الإجابة بخلاف هذا الشيء، ويستدلون لهذا بقوله تعالى: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ...﴾** الآية على ما ذهب السكاكي والقزويني وما إلى ذلك، هذا ما يتعلق بالجزئية الأخرى. **إعراب الآية:** جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما (أعربوا القرآن) لأن هذا القرآن الكريم نزل بلغة العرب، وكان العرب الأوائل يفهمون هذا القرآن ولم يحتاجوا إلى كثير عناء لمعرفة تراكيبه ومدلولاته، بيد أننا ولا سيما في العصور الأخيرة لابد من حيث الصنعة أن يعرف الإنسان شيئاً من الإعراب لتجلية المعنى.

﴿ قول الله عز وجل **﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾** فما في قوله تعالى: **﴿مَاذَا﴾** في موضع رفع بالابتداء، وأنتم عالمون أن الكلام طرفان المبتدأ والخبر، فإذا "ما" في هذا الموطن ماذا؟ في موضع رفع بالابتداء، وخبر المبتدأ هو ذا، هذه اللفظة القصيرة فيها مبتدأ وخبر، "ما" مبتدأ، و"ذا" خبر، وحذفت الهاء لأن الأصل "ماذا ينفقونه" حذفت لطول الاسم، فكأنه أسثقل لفظه ماذا ينفقونه فاستعويض عنه بحذف الهاء وإبقاء النون، أي ما الذي ينفقونه (تقدير الكلام).

﴿ قول الله عز وجل **﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾** ما هنا في موضع نصب بأنفقتم، وكذا **﴿مَا أَنْفَقْتُمْ﴾** وهو شرط، وجوابه **﴿فَلِللَّوَالِدَيْنِ﴾** هذا جوابه، وكذا **﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾** شرط وجوابه: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾**.

معنى الآية:

حقيقة هذه الآية وأخواتها (آيات الإنفاق) هذا هو المصطلح الذي اصطلح عليه أهل التفسير، فهذه الآية لها أخوات قادمة تبدأ من قول الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْكَ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ وتتلوها آيات ولعلها ثلاث عشرة آية كلها تتحدث عن الإنفاق، وإن شئنا أن نسمي مصطلح الإنفاق نسميه الاقتصاد، ونحن لا نغفل عن أهمية الاقتصاد في هذه الآونة من حيث إن أرباب الأموال من المسلمين لا بد أن يعنوا عناية فائقة محتسبين الأجر عند الله عز وجل في التفاعل مع أبناء مجتمعهم، لا سيما إذا كان هناك دأج دعا والدواعي كثيرة، فيجب على المحسنين أن يبتغوا وينفقوا مبتغين بذلك وجه الله عز وجل.

❦ **فيكون معنى الآية:** يسألك يا محمد صلى الله عليه وسلم بعض المؤمنين عن بعض أبواب الصدقة، فقل لهم: ما أنفقتم من مال قليل أو كثير، فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم وأعظمهم حقاً هم الوالدان الواجب برهما والمحرم عقوقهما، ومن بعدهما يأتي الأقربون على اختلاف درجة القرابي الأقرب فالأقرب، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة كما صح بذلك الخبر. وهناك فئة أخرى بحاجة إلى الصدقة {وَالْيَتَامَى} اليتامى وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، وبيننا قبل قليل كيف أن أرباب الأموال يجب عليهم أن يتفاعلوا مع المجتمع، ومن قضايا المجتمع الأيتام، فاليتيم الذي فقد والديه أو أحدهما هذا بحاجة إلى من يحنو عليه، ومن ينفق عليه، فيجب على المجتمع أن لا يتخلى عن اليتيم حتى يصبح عضواً صالحاً منتجاً في مجتمعه، وهم أي الأيتام في مظنة الحاجة لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم وفقد الكاسب. {وَالْمَسَاكِينِ} كذلك هم أهل الحاجات أيضاً وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة، بالإضافة إلى {وَابْنِ السَّبِيلِ} ابن السبيل وهو الغريب المنقطع في غير بلده، فمن أحسن إلى أولاء كلهم وفعل الخير صغيراً كان أو كبيراً فإن الله عز وجل عليم بذلك كله ويجازي عليه بالجزاء الأوفى، فضلاً منه سبحانه ورحمة.

فإذاً علينا أن نقف مع هذه الآية الكريمة وقفة إيجابية، فكلُّ يجب عليه أن يفعل الخير، فالخير الذي يأتي دونما استعداد سابق فهذا هو سيجازيه الله عليه الجزاء الأوفى وإن لم تستعد، أما العمل فلا بد أن يسبقه نية صادقة وعُبر عنها في المصطلح الإسلامي بالإخلاص، وذكرنا آنفاً الحديث المشهور (إنما الأعمال بالنيات) وفي بعض الروايات (إنما العمل بالنية).

إذاً فالعمل يسبقه نية صادقة، وأما الفعل لا نية سابقة له لأنه قد يعرض للإنسان عرضاً دونما استعداد مسبق، فعلى الجميع أن يخلص العمل لوجه الله إن عملاً وإن فعلاً، فإن الله عز وجل عليم بما تنطوي عليه الضمائر وما تكنه الصدور فيجزي الله عز وجل به.

